# الكهف

لقى النبى محمد عليه السلام مُقاومة وعنتًا شديدًا فى محاولته مع قومه قريش حتى يُسْلمُوا . وكان من مقاومتهم له ، أنهم بعثوا إلى أحبار اليهود ، يسألونهم فى مسائل مُعْضلة عويصة ،ليعرضوها على محمد ، فإن أجاب عنها ، آمنوا أنه نبى ، وإن عجز عنها ، كان مدَّعيا ، وكشفوه وهاجموه .

* * *

فقال لهم أحبار اليهود وعلماؤهم : اسألوه فى ثلاث .

اسألوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ، وما كان من أمرهم .

واسألوه عن رجل طوَّاف ، بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وما كان نبأه ؟

واسألوه عن الروح ، وما هو ؟

* * *

وللكهف سورة فى القرآن ، فيها قصص كثيرة ، غير قصة أصحاب الكهف : ففيها قصة الأخَوَيْن المتحاورَيْن ، وفيها قصة الخضر صاحب موسى وقصة الطوَّاف ، وقصة الروح . ولكن أصحاب الكهف ، غلب أمرهم على كل ما فى السورة .

* * *

وأصحاب الكهف ، جماعة ذوُو فكر ورأى ، وأصحاب عقيدة ، ولهم مبدأ ثبتوا عليه ، وضحَّوا فى سبيله ، وهم دليلٌ جديد على صحة عقيدة البعث .

* * *

وهم كانوا شبابًا ، وعقولهم نقية نيِّرة ، ونفوسهم زكية طاهرة ، وفيهم إباءٌ وحَمِيَّة ، وقد نظروا فى قومهم ، فرأوهم يعبدون الأصنام والحجارة ، وعزَّ عليهم أن يكونوا عبيدًا لحجر ، خاشعين لصنم ، وأن يكونوا أسارى التقاليد ،وأن يساقوا إلى ذلك سَوْق العبيد بسياطِ الملك .

* * *

وجمعتهم ندوة ، وما أخطر الندوات ، ففيها يتحرَّر الفكر ، وتتبدَّد سحائب الجهالة ، وجرى حديث الشباب فى الندوة ، عن سُخْف العقول التى تذِل لحجر مَنْحوت ، أو تمثال

مصبوب . ونظروا فى أنفسهم ، وفى الملكوت حولهم ، وفى مَنْ يا ترى خالقُ هذا الكون ،وواهبُ هذه النعم ؟

ودرسوا ، حتى اهتدوْا إلى الله ، بالفطرة السليمة ، والعقول الحكيمة ، فكانوا أصحاب فكر ورأى .

* * *

وكانوا فى مدينة أفسوس ، فى إقليم طرسوس ، فى شبه جزيرة طور سينا ، تحت حكم الملك الطاغية ، دقيانوس .

وخشى هؤلاء الفتيان ، أن ينكشف أمرهم ، ويطّلع الملك والناس على خبرهم فيعذبوهم ، أو يردوهم عن دينهم الذى اهتدوا إليه ، إلى ذلك الدين الذى اعتقدوا فساده وبطلانه .

وهم أصحاب عقيدة اعتنقوها ، وآمنوا بصحتها وسلامتها فاهتدوْا إلى الله .

وهم أصحاب مبدأ ، لابد أن يثبتوا عليه ، وألاّ ينكصوا عنه ، ولابد أن يضحوا فى سبيل هذا المبدأ ، فقرروا فى ندوتهم هذه ، أن يفروا بدينهم إلى الله ، من وجه الغاشمين الكافرين .

* * *

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

(الكهف الآية ١٠)

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ ﴾

(الكهف الآية ١١)

وألقينا عليهم النوم ، فناموا

﴿ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾

(الكهف الآية ١١)

ثم بعثناهم ، ليكون بعثهم من نومتهم الطويلة ، دليلاً جديدًا على صحة عقيدة البعث .

والبعث بعد الموت ، كان ولا يزال مَحَكّ رسوخ الإيمان بالله ،ومثار الفتنة عند الملحدين ، ومزلقًا يهوى فيه من كان فى إيمانهم زَيْغ .

* * *

والناس لا يؤمنون إلا بالواقع المُشاهَد ، وكيف يسوق الله إليهم يوم القيامة وقيام الساعة ، حتى يَرَوْه بأعينهم ،ويشهدوا الصورة التى عليها يبعثون ؟ .

ويومُ القيامة فى غيب الله .لم يجن حينه ، ولم يأت أوَانُه .

وكان لابد لهم حتى يؤمنوا ،أن يُرِيَهم الله دليلاً محسوسًا ، يشاهدونه ويحسونه ...

فأمات الله ناسًا منهم ، وطالت مَيْتَتُهم سنين عددًا ، ثم بعثهم .

والذى قَدَر على أن يبعث هؤلاء ، يقدر على أن يبعث الناس أجمعين .

وما الموت إلا شبيهَ للنوم ، لا فرق بين الميت والنائم ، إلا نَفَسٌ يتردّد

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾

(الزمر الآية ٤٢)

فما لكم تستعظمون فكرة البعث ، وتُخْتارون وتشكُون فى الحياة الأخرى ، بعد هذه الحياة ؟

* * *

هؤلاء الفتية ، ناموا نومًا عميقًا ، ثم بعثناهم لنعلم ونُرِى الناس المختلفين فى تقدير عمر هذا النوم . أيّهم أقرب إلى الصواب فى إحصاء هذه الفترة .

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾

(الكهف الآية ١٣)

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾

(الكهف الآية ١٤)

وثبتناهم على عقيدتهم ، ورسَّخنا إيمانهم .

* * *

والعاقل المفكر ، يُقلب الرأى ، ويمحّص الفكرة ، حتى يخلص إلى عقيدة ، ومتى اعتقد ، تملكته عقيدته ، واستبدت به ، فلا يملك أن يتحرر من هذا الرأى ، الذى صنعه بتفكيره .

وهكذا كان أولئك الفتيان ، فقد اندفعوا تحت تأثير عقيدتهم ، وقاموا فى قومهم ، وأعلنوا دينهم ، وقالوا :

﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ﴾

(الكهف الآية ١٤)

فإن دَعَوْنَا من دونه إلها ، قد شطَطْنا وفسَقْنا ، وكنا قوما ضالين .

وإن قوْمَنَا هؤلاء ، قد اتخذوا من دون الله آلهة وأوْثانًا وأصنامًا يعبدونها ، فياليتكم ياقومنا ، تأتون على دينكم هذا بسلطان بيِّن ، ودليلٍ مُقْنع .

وإلا فإنكم مُفتَرون على الله

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾

(الكهف الآية ١٥)

* * *

وقال بعض الفتيان لبعض : إننا أيها الإخوان ، قد قررنا أن نعتزل هؤلاء المشركين ، وأن نتخلص من دينهم ، وصممنا على ألا نعبد إلا الله فهيا بنا نهاجرْ بديننا ، ونأوى إلى الكهف ، نُودِعْه سِرنا ، ونقيم فيه ، ولعل الله ينشر علينا من رحمته ، ويهيىء لنا من أمرنا رشدًا . ويرفق بنا فهو أرأف بالمؤمنين ،ويهديهم الصراط المستقيم .

* * *

أليس من دلائل قدرة الله ، أن ينام هؤلاء الفتية ، فى فَجْوةٍ من الكهف ، تزورهم الشمس فى شروقها ، ثم تميل عنهم طول النهار ، فلا تزورهم إلا فى غروبها ؟ .

ذاك حنان الطبيعة ، تجعل الشمس تمدهم بأشعتها البنفسجية فى مشرقها ومغربها ،وتحجب عنهم أشعتها الحمراء المحرِّقة والمؤرِّقة .

يا علماءَ الطبيعة ، يا من حلَّلتم الضوء ، وقرَّرتم أن أشعة الشمس ، حين الشروق وحين الغروب ، تتخذ طريقًا أطول فى وصولها إلى الأرض لشدة مَيْلها عليها ، فتكون أشعتها البنفسجية أوضح وأفعل فى الأجسام ؟

ويا علماء الطب ، يا مَنْ تعالجون المرضى ، بالأشعة البنفسجية ، أترون أن لها أثرًا فى بقاء هذه الأجساد النائمة مئات السنين ، لا يدركها عفَنٌ ولا نَتَنٌ ولا بِلَى ؟

ويا علماءَ النفس والعقل الباطن ، ماذا ترون فى نومتهم الصاحية ؟ فهذه نضارة الصِّحوة بادية على وجوههم ، وقد تفتحت عيونهم ، وكلما تعبت جُنوبهم من طول الرقاد تقلبوا على جنوبهم ، فما تعليل هذه النَّومة الصاحية ؟

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ ﴾

(الكهف الآية ١٨)

مُقْعى بالباب

﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾

(الكهف الآية ١٨)

* * *

وبعثهم الله ، وسيبعث الخلق أجمعين يوم القيامة ، كما بعث هؤلاء بعد طول رقاد . والزمن جنس واحد ، طال أو قصر ، وما جاز مئات السنين ، يجوز فى ملايين السنين .

وكذلك

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ ﴾

(الكهف الآية ١٩)

فى نومتكم هذه ؟

﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ ﴾

(الكهف الآية ١٩)

ثم قالوا حين اختلفوا فى تقدير الزمن

﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ (الكهف الآية ١٩)

وما لنا نُطيل البحْث والتحرِّى فى معرفة عمر الزمن ؟ .

أليس النوم قطعة من أعمارنا ؟ وأليست الأعمار من تقدير الله وحده ؟

وما لنا نجهد أنفسنا فى تفتيق حُجُب الغيب ، فلْندعْ الغيب لله .

ولنعش فى الواقع الحاضر الذى نحن فيه .

والواقع أننا فى حَيرة من أمرنا ، فهذه شعورنا المهدَّلة ، ولحانا الطويلة ،وأظافرنا كالحراب . ونوْمتنا المعمَّاة علينا فى فجوة الكهف .

لا تشعرون بالجوع يُقوِّض ضلوعنا ، ويقرِّص بطوننا ؟ .

﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ ﴾ (الكهف الآية ١٩)

وفِضتكم إلى

﴿ الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾

(الكهف الآية ١٩)

والتلطُّف اصطناع اللطف والخفَّة ،وسُهولة المدخل والمخرج ، والتباعد عما يريب الناس ويثير شكوكهم فى مسلكه وطول لحيته ، وبروز أظافره ، وتخلخله فى مشيته ، من طول رقاده ونومه .

﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾

(الكهف الآيتان ١٩/٢٠)

ويعرفوا أمركم

﴿ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾

(الكهف الآية ٢٠)

* * *

ودخل رسولهم المدينة ، وعرض نقوده ، فأنكروها ،لقدم العهد بتاريخها ونقشها من عهد الملك دقيانوس ، وهو قد هلك منذ ثلاثمائة سنة ، وتسع سنوات .

فانكشف أمرهم ، وعرفوا سرَّهم .

وتدارسوا تاريخ الفِتْية الذين فرّوا إلى الله بدينهم .

* * *

وتجلَّت حكمة الله فى العثور عليهم ، فقد وضح لهم وللناس من حولهم ، أنَّ وعد الله حق فهو يكرم المؤمنين ،ويحميهم من الكافرين ، ومَن يهد الله فما له من مُضلٍ .

وليعلم الكافرون المنكرون ، أن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وليعتقد الناس أن أصحاب الكهف دليلٌ جديد على صحة عقيدة البعث .

وهاج الناس وماجوا ، وراحوا إلى الكهف ، ليَروْا الفِتية المؤمنين ، وليعرفوا خبرهم ، وليتحدثوا إليهم .

ولكنهم دخلوا عليهم ، فوجدوهم قد بدءُوا من جديد ، ينامون نومةً دائمةً أبديَّة .

﴿ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾

(الكهف الآية ٢١)

وقال ذوو الرأى فيهم

﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾

(الكهف الآية ٢١)

نصلى ونسجد فيه ، بقرب هؤلاء الفتيان الراقدين ، حتى نكون أقرب إلى الموعظة .

وحتى يتجدد لدينا ، حين كل صلاة ، دليلٌ جديد على صحة عقيدة البعث .

* * *

وذهب الناس مذاهب فى عدد هؤلاء الفتيان .

فمن قائل : إنهم كانوا ثلاثة ، والكلب رابعهم . وقائلٍ إنهم كانوا خمسة والكلب سادسهم .

وقائل : إنهم كانوا سبعة ، والكلب ثامنهم .

وما الحكمة فى أنهم عدَّدوهم فى كل مرة بالعدد الفردى ، فإذا أضيف إليه الكلب كان عددًا زوجيًا ؟ لعل ذلك يرمى إلى فكرة الازدواج ، وأصطحاب الرفيق فى الطريق .

﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾

(الكهف الآية ٢٢)

ولا تجادلْ فى شأنهم إلا جدالا خفيفا .

وإياك يا محمد ﷺ ، أن تتحدَّى بعلمك الذى علَّمناك مَنْ لم نُمن عليهم بمثل علمك .

ولا تسأل مَنْ حَوْلك فى شأن أصحاب الكهف ، لا سؤال المسترشد ، ولا سؤالَ المتَعنِّت . فإن كنت مسترشدًا ، فإن فيما علمناك الكفاية ، وإن كنت متعنتًا متحديًا ، كان ذلك منك إعناتًا للناس وتجهيلا لهم وفيه تفضيحٌ للمسئول ،وتزييفٌ لما عنده وهذا مُخِلٌّ بمكارم الأخلاق .

ولا تستَفْتِ فيهمْ منهم أحدا .

ويا محمد ، إياك أن تَعِدَ بشىء فى غدٍ من قبل أن تقول – إن شاء الله ، فلَعلَّ احتجاب الوحى عنك ، حتى أُخلف وَعْدَك ، يُعلِّمك أن تذكر قدرة الله قبل قدرتك ووعدَه قبل وعدِك .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾

(الكهف الآيتان ٢٣/٢٤)

* * *